

بين الغرب والشرق

للدكتور اسماعيل أحمد آدم

— ١ —

« إن العقليّة النورية هي العقليّة التي تنسج وحاجات هذه الحياة الدنيا . ونحن نتبع وحي هذه العقليّة بحكم أننا وجدنا في هذه الحياة الدنيا . أما العقليّة المشرقية فتلائم الحياة الباقية ، فإذا انتقلنا إلى الأخرى فهناك نتبع وحي هذه العقليّة »
هابيل آدم

قرأت ما كتبه صديقي الأديب الثابتة فليكس فارس في عدد الرسالة السالف في موضوع الشرق والغرب، وكان حرياً بي ألا أرد على ما كتبه صديقي ومناظري من ردّ لأرائي التي سبق أن أدليت بها في مناظرتي معه منذ عام أو أكثر من على منبر جمعية الشبان المسيحية بالأسكندرية والتي نشرتها في وقتها (المجلة الجديدة)، لأنني أعتقد أنني في حينها أعقبت عليها بما رأيت فيه الكفاية لإثبات وجهة نظري في الموضوع^(١). ولكن مناظرتي وقد أخذ من ردّه على ما رأيته اليوم ذا صلة وثيقة بذلك الحديث الذي أجراه الأستاذ الكبير توفيق الحكيم على لسان الروسي والمصري حول الشرق والغرب في روايته «عصفور من الشرق» التي صدرت خلال الشهر الماضي . ولقد أثار الأستاذ فليكس فارس في مقاله مسائل أعتقد أنني بينت زعمها ومجانباتها لحقائق الأمور في تعقيبي عليه، لهذا عمدت بدوري إلى تعقيب على رد مناظرتي الأستاذ فارس لأخذ منه ما يدفع آراءه التي يؤيد بها اليوم إيمانه بتفوق ثقافة الشرق

لكل شعب في العالم تراثه التقليدي الذي خرج به من ماضيه، والذي يحف به في حاضره، والذي يمكن فيه مقدمات مستقبله

(١) كانت المناظرة مساء ٢٩ مارس سنة ١٩٣٧ بدار جمعية الشبان المسيحية بالأسكندرية، وكان موضوع المناظرة « من أنا مصر أن تأخذ بالحضارة الغربية » وكان يؤيد الوجهة الانبجائية الدكتور اسماعيل أحمد آدم ويعارضه الأستاذ فليكس فارس، وقد نشرت المجلة الجديدة بعدها الصادر في مايو سنة ١٩٣٧ كلة الدكتور آدم في الموضوع، ومن المهم أن نقول أن الآراء توزعت بين الرأيين بالتساوي في المناظرة

— تلك التي نطلق عليها اصطلاح « روح الأمة » — وهو الذي يربط ماضي جماعة من الجماعات بحاضرها ويمضي بها إلى مستقبلها . ومصر لم تخرج عن كونها مجتمعاً استوحى روح الشرق عصوراً متطاولة وخرج ككل أمة بثقافة تقليدية كونها على مدى تاريخها الطويل . وإن وقف مجتمع مصر اليوم من سير الزمن يطل على حاضر افتقدت فيه عناصر الحيوية في ثقافته التقليدية، تلك الثقافة التي كونتها مصر بما ورثته عن أسلافها الفراعنة في أصول الفن الفرعوني القديم ومظاهر الحياة المماشية التي ترتكز عليها حياتها الاجتماعية . وبكفينا للتثبت من هذه الحقيقة أن نلقي نظرة على الملايين المديدة التي تنزل ريف مصر والتي تنتشر على ضفتي النيل من الشلال حتى البحر الأبيض المتوسط، في حياتها المماشية التي يرتكز عليها المجتمع المصري، وأن نرجع بعصرنا إلى الماضي بعدد مستعدين من النقوش التي قرئت على الأثار والمباكل والتي انبثت على جنبات الوادي في مصر، ومن الكتابات التي خطت على أوراق البردي والتي صورت حياة المصريين في العهد الفرعوني، لنخرج بصورة تمثل وحدة الحياة المماشية في مصر من عهد الفراعنة إلى يومنا هذا . وذلك راجع إلى أن الحياة المماشية صورة من احتياجات البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والبيئة واحتياجاتها لا تزال على وتيرتها الأولى في ريف مصر حيث ينزل معظم أبناء مصر . خذ إلي جانب ذلك منطق التفكير وأسلوب الصياغة، وأعني بذلك اللغة من حيث هي صوغ المعاني، والدين، مما اكتسبته مصر من العرب فكان ركناً من أركان الثقافة التقليدية لمصر . ولقد اختلطت هاتان الثقافتان، الفرعونية من جانب والمصرية من جانب، فكان من ذلك مزيج . ذلك ما نعبر عنه بالثقافة التقليدية لمصر منذ أيام الفتح العربي

أما ما أثاره مناظرتي الأديب فليكس فارس من اعتراض على قولي إن الحياة المماشية التي يحياها المصري الآن تجري على غرار ما كان يحياها أسلافه الفراعنة بقوله وأنا لا أرى في حياة المصريين اليوم أثراً من الحضارة الفرعونية لا في الحياة العملية وبمعنى بذلك المماشية ولا في الحياة الأدبية، فإنني لا أبجد صعوبة في دفع اعتراضه فأقول وأنا أرى في حياة المصريين اليوم أثراً

من الحضارة الفرعونية في حياة الشعب المماشية ١ :

وأظن أن إثارة الاعتراضات ودفع الاعتراضات لا يقوم على مجرد القول بأنى أرى أو لا أرى ، إنما تقوم على البحث والتحليل والنقد المستقصى . فإذا قلت إنى لا أرى فى حاجة لدفع اعتراض مناظرى ، فذلك واضح لأنه لم يأت بأكثر من قوله إنى لا أرى ١

ومع ذلك أحب أن ألفت نظر مناظرى إلى أصول الرى عند الفلاح المصرى ونظام معيشته ومسكنه الربى وجلبابه الأزرق وعاداته وتواكله وانصرافه عن كل شىء لقطعة الأرض التى يزرعها ، الشىء الذى لم يتغير فى مصر منذ سبعة آلاف سنة مما يتضح للباحث من أبسط مقارنة بين فلاح اليوم فى مصر الحديثة وفلاح الأس البعيد فى مصر الفرعونية ، الشىء الذى يثبت أن الثقافة التقليدية تقوم على أساس من الفرعونية من ناحيتها المماشية ؛ وإذا قلت الفرعونية قائما أعنى أن وحدة الحياة المماشية تنمى فى ثقافة المصريين التقليدية حتى المهد الفرعونى .

إذا صح هذا ، فكأن الثقافة التقليدية لمصر من ناحيتها المماشية فرعونية ، أما من ناحيتها العقلية فهى فرعونية تكيفت تبما لها الثقافة العربية تكيفا يتلاءم وما تحتاج إليه الثقافة الفرعونية فى عهد الحكم الرومانى من ملابسات لتجارى فى الحياة فى ذلك العصر . ومن هنا قامت أو قل استمدت اللغة العربية فى مصر قدرتها على صوغ المائى بما يتكافأ ومحيط مصر ، فكانت اللغة العامية فى مصر ، وهى فى الحقيقة الفرعونية الآخذة بأسباب التمرّب ، ثم كان الدين الاسلامى ومنطق التفكير مما يكافئ الطبيعة المصرية الفرعونية ، وهذا ما يثبت دخول الكثير من عادات وتقاليد المصريين فى تضاعيف العقيدة الدينية . يقول الدكتور سليم حسن بك عالم الآثار المروف :

« إن كل ما كان يحرزه المصرى القديم من عادات وفن ودين إلى عصر الفتح الاسلامى قد سلمه برمه إلى مصر الاسلامية ، اللهم الا اللغة والدين — على أن الأولى بقيت على قيد الحياة وأثرت فى اللغة العربية فى مصر إلى أن اندثرت فى القرن السابع عشر وأقصت بذلك اللغة القبطية . أما الدين المصرى القديم فقد ظهر على الدين المسيحى ثم الاسلامى لفظا وشكلا . والواقع أن معظم الطقوس

الدينية فى مصر الحديثة ترجع فى أصلها إلى مصر القديمة وهى تعد فى الدين الاسلامى بدعا » وأنت ترى أن الإخصائين فى مصر الفرعونية يحكمون لنا فى قضيتنا أن ثقافة مصر العقلية التقليدية فرعونية الأصل تكيفت تبما للثقافة التقليدية العربية تكيفا يتلاءم وما تحتاج إليه الثقافة الفرعونية من ملابسات لتجارى فى الحياة فى عصر الفتح الاسلامى .

وهذه الثقافة التقليدية التى تتأثر صورها فى سريرة كل مصرى هى قرارة الذهنية المصرية . ولا يمكن أن تنقطع أوصال هذه العقلية من حيث هى تنزل عند حكم فطرة الشعب ما لم يهتز ذلك المجتمع المصرى هزاً عنيفاً ويدلف إلى حياة جديدة تنقطع معها أحكام البيئة والمحيط التى احتضنت ثقافة مصر التقليدية نتيجة لتكافئها معها . وما دامت لم تفرز مصر بثقافة جديدة تهز المجتمع المصرى فى صميمه ، فليس هنا لك سبيل لتقطع ثقافة مصر التقليدية .

إذن فلنصرف الكلام عن ذلك ولنبحث فى هل هنالك من سبيل لتفحيح الثقافة التقليدية لمصر بمناصر أجنبية تبعث فيها النشاط وتدفعها لآفاق جديدة تتفق وحالات هذا العصر . وإذن يكون موضع الخلاف الأساسى بينى وبين مناظرى : هل من الخير لمصر أن تلتحق بثقافتها التقليدية بمناصر من الثقافة الغربية لتسار مجرى الحياة ، أم تمضى فى أخذها عن الثقافة الشرقية ؟

هذا هو موضوع الخلاف بين الشرق والغرب بالنسبة لمصر ، وإذا قلت مصر ، قائما أعنى مصر وحدها ، لأن لمصر ثقافتها التقليدية التى تباين ثقافة السوريين التقليدية أو ثقافة اللبنانيين التقليدية ، وما ينجح لمصر قد لا ينجح لغيرها

أما وقد وصلنا من البحث إلى هذا الحد ، فلننظر قليلا فى بحث معنى الثقافة ، لأنى أنبين خلافا خطيرا بينى وبين مناظرى فى مفهوم الثقافة والعلم

وإنى لأشعر قبل أن أدلف إلى أغوار البحث بخطورة ما سأدلى به ، ذلك لأنى أجد التفرقة بين العلم الوضئ والثقافة اعتباريا . وإن كانت صيغة العلم موضوعية وصيغة الثقافة تنسم بطباع الذاتية . ذلك لأنه لا يمكن فى عالمنا الحاضر التفرقة بين الثقافة والعلم ، لأن الأولى نتيجة للثانى ، وليس ذلك نتيجة لاغترار ذهنى ، وإنما نتيجة للنظر فى مجتمعا الراهن حيث يسود

التكاثر بين الحياة الجديدة التي دلف إليها اليابانيون وبين حاجات هذه الحياة الجديدة ، لأن التواكل هنالك يقوم مقام العمل والتفكير ، فكانت نتيجة ذلك أن استعبدت الآلة أهل اليابان لا أرغب في التوسع أكثر من هذا في هذا الموضوع الآن

في ضوء ما قدمت يفهم معنى عبارتي : « لشرق روحه الذي يستوحيه أبنائه نزولاً على فطرتهم ، وللغرب منطقته الذي يستنير به أفرادهم نزولاً على وحى مشاعرهم » ، تلك العبارة التي جعلت مناظري يستغرب مقالاً لأن فيه حصرًا للمنطق في الغرب . وفي الواقع ما هو حصر للمنطق فيهم ، ولكن شاء الشرقيون أن يحصروه فيهم متابعة لدعوات خطيرة مثل التي يقوم بها اليوم الأستاذ فليكس فارس !

المنطق مشاع بين الأمم ، ولكن يجب أن تمرن الأمم عليه قبل أن تصبح متفلفة في تفكيرها ، إذ ليس المنطق أسلوباً في التفكير يتبع وأفيسة يجري عليها ، إنما هي قبل هذا كله ميل عقلي وانجاء ذهني يمكن أن يكتسب

أما قول مناظري « وما اخترع الغرب المنطق ولا هو أوجد التفكير العلمي » فذلك بجانب للحقائق المعروفة في التاريخ من أن الإغريق هم أول من عرفوا المنطق وأوجدوا التفكير العلمي وغنم أخذ العالم المنطق . ولا أظن أن هذا موضع نقاش ، وإنما يظهر أن الروح الشمرية تغلب مناظري فتجعله يتناسى كل حقائق العالم !

أقف عند هذا الحد في هذا المقال في دفع اعتراضات مناظري الأستاذ فليكس فارس ، ولنا في المقال الثاني عودة لموضوع الثقافة والعلم وثقافة العرب وثقافة الغرب

وأنتهز هذه الفرصة لأدعو أنصار الثقافة الغربية للكتابة في موضوع الأخذ بثقافة الغرب لهذا الشرق النائم ، وفي مقدمة هؤلاء أدعو صديقي الدكتور حسين فوزي صاحب « سندباد عصري » أن يبدي آراءه بصراحة في الموضوع ، ولعل في هذا النقاش يكون الحد الفاصل بين القول بالشرق والغرب !

اسماعيل احمد أرهم

العلم الوضعي كل شيء ، وينزل المنطق العلمي البحث أساساً لكل شيء . فإن الحضارة الراهنة ... الآلية بصورها المادية نتيجة لاستخدام المنطق العلمي في استغلال الطبيعة لصالح الإنسان ، وكانت نتيجة استخدام المنطق العلمي أن نشأت حضارة تنلها الزعة المادية تنزل منها ثقافتنا العصرية منزلة التاج ، ولا يمكن لمجتمع أن يأخذ من العلم الوضعي نتائجها فيستخدمها دون أن يأخذ منطقته الذي يؤدي إلى هذه النتائج إلا ويكون عالة على الانسانية . وأرفع مثال ذلك اليابان التي ضربت بها مثلاً على أن أمة من الأمم لا تأخذ بالثقافة الغربية إلا وتنهض ، فإن اليابان ما نهضت إلا بأخذ الآلة والآلة فقط ، ولذلك كان نهوضها آلياً لأنها لم تأخذ منطق التفكير الأوروبي نتيجة لاحتفاظها بشريتها ومنطق تفكيرها التقليدي . وهذه حقيقة كبرى كما يقول مناظري ، ولكن تقوم برهاناً على صحة كلامي ، فاليابان اليوم عاتشة عالة على أوروبا وعلم أوروبا ، لأنها لم تأخذ علم أوروبا ومنطق تفكير أوروبا ، فكان نجاحها وفقاً على الآلة التي استعبدت أهلها فعاثوا ثمانين مليوناً من البشر في مرتبة أحط من السوائم والحيوانات إذ لم يرتفعوا إلى مرتبة الشمور بالحياة الانسانية وكرامتها والنضال من أجلها كما هو الحال في أوروبا حيث يعمل العامل للتحرر من استعباد الآلة

أظن أنني خرجت عن الموضوع

إن ثقافة اليوم من حيث أنها تتبع العلم لا يمكن تخليصها من آثار العلم ، والثقافة الأدبية يفزوها اليوم العلم بمنهجه الصارم ومنطقه ، فمن الخطأ أن نفرق بين الثقافة من حيث أنها نتيجة معاشية وأسلوب في الحياة وبين العلم ومنطقه وهي أداة اليوم للعيش والحياة

إن الفرق بين الشرق والغرب ينحصر في هذا وحده : الغرب يقيم الحياة على أساس إنساني ويترك للعالم أن ينظم الصلات الانسانية بين البشر ؛ والشرق يقيم الحياة على أساس غيبي . ترك للشيبات تنظيم الصلات بين البشر . الغرب يقيم حياته على أساس من التفكير في إيجاد التكاثر بين حاجاته ومحيطه مستخدماً في ذلك العلم ؛ والشرق يقيم حياته على أساس من التواكل . ولهذا لما أخذت اليابان الآلة لم تعمل على إيجاد